



المزارع المضيم



محمد سعيد المولوي - سورية

وكان ثانيا لا بد من تأمين الخبرة، وقد حصلتُها من صديق -رحمه الله- يملك أرضا واسعة في قرية مسرابا يديرها بنفسه وله خبرة عظيمة.

أما الأدوات فمنها ما اشتريته ومنها ما استعرت من الجيران أو المعارف. واجتمعت بهذا الصديق وناقشنا الأمر، وكان رأيهِ أن تزرع الأرض قمحا لأن مردوده سريع، ويزرع بين بذار القمح غراس أشجار كالشمش والبرقوق والدراق..... إلخ، وبينما تستغل الأرض بضع سنوات تكون الغراس قد كبرت وأينعت وصار بالإمكان الاستفادة منها. واستأجرت جرارا زراعيا، وحرثنا الأرض ورتبناها أقساما، وحفرنا حفرا للغراس، وبذرنا القمح، وغرسنا الغراس، وسقينا الجميع بالماء، وتم الوضع على أحسن ما يكون.

كنت كل يوم أمر على البستان أرقب حبات القمح وقد نشأت أوراقها الخضراء وبدأت تكبر، وأتفحص الغراس وقد تمكنت من الأرض، وكان شأني شأن الأم التي تراقب أولادها وتحوطهم بالناية. لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه! فالزراعة ليست حبا يبذر وأرضا تحرث فحسب بل هناك أمور تابعة كالسقي

ارتفعت الأسعار، وبدأت ترتقي نحو الأعلى، وزادت الضرائب، وأصبح راتب التقاعد لا يكاد يكفي للضرورات، ويكون الأمر أسوأ حينما تصدر قوائم تكاليف الخدمات من ماء وهاتف وكهرباء، أو حين يضطر لمراجعة طبيب أو شراء الأدوية، حيث لا يكون في الجيوب إلا طويل العمر، ويزيد الأمر سوءا أنه لا يوجد طريقة أخرى لكسب إضافي، وماذا يعمل من بلغ من العمر عتيا؟

وزاد الأمر صعوبة بعد أن استقرغت من الوسائل ما ذكرت في الحلقة السابقة، ثم خطر لي أن والدتي تملك أرضا في غوطة دمشق لم تزرعها منذ زمن بعيد، فلم لا أزرعها؟ والحقيقة أنه لم يخطر لي يوما أن أكون مزارعا، فالعمر لا يساعد، والخبرة مفقودة، والمال اللازم مفقود، ولكن المثل يقول: قيل للمسمار لم تدخل في الحائط؟ فأجاب من ضرب المطرقة برأسي؟.

وهكذا تجلى قراري الإمبراطوري، فقد قررت أن أزرع الأرض، وكان لا بد أن أهيئ المال أولا، فأخذته من قريب لي، وبذلك سنؤمن البذور والشجر وأجرة العمال الذين سيعملون فيما لا أطيقه أو أحسنه.

والعزق والحصاد والترجيد والدراس والحمل والتسويق. وكل هذا ما كنت أهلاً له، ولو استأجرت من يقوم به لخسرت خسارة بينة، وإنما يكسب الفلاح لأنه يعمل هو وأهله بأيديهم ويوفرون أجرة العمال.

وكان لابد أن نتدارك الحاجة السريعة والملحة وهي السقاية حتى لا يموت الزرع. وفي البداية كان فضل الله ولا يزال عظيماً، فقد تكفلت الأمطار بالسقاية، ولكن الله سن لنا سنناً في الكون فلا بد أن يتبع الربيع الشتاء، ولا بد أن يحل الصيف حتى تجف السنايل وتصبح صالحة للاستعمال، وكان لابد من السقاية، وهيا يا أبا ياسرا شمر ثيابك وهين نفسك للغوص في المياه وفي الطين نهارة أو ليلاً حسبما يكون دور الأرض في السقاية لأن الماء قسمة حسب مساحة الأرض، وقد يأتي موعد السقاية ليلاً أو ظهراً أو عشاءً، وأنت معرض في الليل للدغ الهوام والحشرات، وفي الظهر للحر الشديد الذي لا يروي المرء ظمأه فيه.

وكما يقال في المثل: (وقع الشيخ ولم يسم عليه أحد) فقد كنت كمن وصل إلى منتصف البئر، فلا هو قادر على إتمام النزول، ولا هو قادر على الرجوع! وأمضيت أواخر الربيع وقسماً من فصل الصيف وأنا أخوض في المياه والوحو، وتتصبب مني قطرات العرق، وأعاني العطش الشديد، وتكاد قواي تخور لكنها تتجدد ويكبر الأمل كلما رأيت قصبات القمح تنمو وتطول.

وأصدقكم أنني كنت أدخل بينها فلا أرى من طولها ذلك أنني ما كنت أحرمها من موعد سقاية، أما الغراس فكانت تنمو وتطول بشكل يدفع إلى السرور، وهكذا كانت فرحتي بأغصان القمح ونمو الغراس عظيماً.

وجاء موعد الحصاد وما لا أطيعه ولا أستطيعه، فاستأجرت من قام بذلك، وهياً مكاناً لدرس القمح وبقي علي الحصول على النورج وهي اللوح الخشبي الذي تدور به الدابة فوق سنايل القمح فتفصل الحب عن القش. ويسر الله الأمر فقد كان قريباً منا زميل في التعليم يملك

أرضاً واسعة، وقد أعارني النورج والحصان لكنه اعتذر أنه لا يوجد من يقود (الطنبر) والحصان ليوصل النورج، فتكفلت بذلك وتعهدت بإعادة الحصان.

ومن الطريف أن تراني أقود الطنبر، ولو مر أحد من تلامذتي ورآني فماذا سيقول عني؟ ومن الطريف أن الحصان كان حذي حديداً جديداً في أسفل حافره، وربما كان يطيب له أن يسمع صوت ضربات قوائمه على الأرض، وكان كلما وجهته نحو جانب الطريق الترابي أبى إلا أن يحيد إلى القسم المعبد غير عابئ بأنه سوف ينزلق على الأرض، وكان ما خشيت منه وسقط الحصان على جنبه! وقد رحمني الله أن سحب رجلي من جانبه قبل أن يصل إلى الأرض، ولو ظلت مكانها لكسرت وأصبحت مقعداً بدلاً من متقاعد، وصحت من فرحي: يا فرحي لا أزال متقاعداً!

وهكذا تيسرت الأمور، وكان محصول القمح وفيراً، ومحصول التبن أكثر. عظم الأمل في نفسي بأنني سأحصل على مال كثير أسد به نفقات العمل ويبقى لدي ما يكفيني، وعرضت القمح للبيع وكان السعر منخفضاً لكثرة المحصول العام، واضطرت لبيعه لأنني لا أملك مخزناً أحزنه فيه. وبقي التبن وعرضناه على مربي الأغنام والأبقار فما رضي أحد شراءه لأن الحيوانات لا تستطيع أكله لشحنه وقسوته، ووقعنا في مشكلة جديدة! فهذا التبن يشكل خطراً إن أصابته النار، ولم يبق لنا من سبيل الآن إلا أن نعرضه على أصحاب الحمامات العامة يسخنون به الماء للمغتسلين، والقاعدة تقول: كل معروض مكروه، ومن غير إطالة شرح: بيع التبن بأبخس الأسعار.

وحين أجريت الحساب والميزان بين ما صرفنا وما كسبنا كان الأمر مضحكاً للغاية! فإن ما حصلته لا يساوي قطرات العرق التي سالت من جبيني على نظاراتي، وجلست أفكر، ووجدتني أهب واقفاً كالمجنون وأنا أصيح: يا فرحتي أنا متقاعد...! وسمعت الأهل تقول: يا حسرة لقد جن الرجل! ■